https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الخطابة والجائحة وجهاً لوجه

أ.د. محمد الولي
eloualimoh2000@yahoo.com

الملخص:

لا أقصد من هذا المقال فحصا تقنيا لوباء كوفيد؛ بل أقصد فقط إلى آثاره الخطابية التي تتمثل في اضطراب الخطاب عنه بسبب لغزيته. لهذا السبب انخرط الجميع، العلماء والعوام، في النقاش ويدلون بدلوهم على قدم المساواة.

في هذا السياق استنجد العلماء والسياسيون بالاستعارة لوصف هذا الوباء الفتاك. كانت استعارة الحرب أشهر استعارة تم تداولها. هذا المقال يتعرض لفوائد وعيوب استخدام هذه الاستعارة. إن استخدام استعارة واحدة لوصف ظاهرة ما يكون قاصرا دوما. في حين ان تعداد الاستعارات لوصف ظاهرة ما قد تقربنا منها أكثر دون أن تتمكن من الإحاطة الكلية بها.

الكلمات المفاتيح:

كوفيد، الخطاب، العلماء، السياسيون، الاستعارة.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

Rhetoric and the Pandemic Face to Face

Pr. El Ouali Mohamed
eloualimoh2000@yahoo.com

***Abstract*:**

I don't mean from this article a technical examination of the Covid epidemic; I mean only to his rhetorical effects of the disorder of the speech about him because of his mystery. That's why everyone got involved; Scientists and scientists, in debate and in equal measure.

It is in this context that scientists and politicians have drawn the metaphor to describe this deadly epidemic. The war metaphor was the most famous one ever circulated. This article has the benefits and disadvantages of using this metaphor. One metaphor for describing a phenomenon is always inadequate. While the multiplicity of metaphors to describe the phenomenon may bring us closer to it without being able to take full notice of it.

***Keywords*:**

Covid, Scientists, scientists politicians, metaphor,

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

لقد تعرضت الإنسانية خلال هذه السنة لامتحان قاس. يتمثل في ظهور جائحة كورونا وانتشارها السريع في كل جهات المعمورة. إن الاكتساح السريع لهذا الوباء وتعاظم آثاره الهدامة وعدم توفر الوسائل الطبية الكافية للتعرف على طبيعته فالقضاء عليه، قد أصاب الإنسانية المزهوة بقدراتها التقنية بصعقة أليمة.

كان للغْزية هذا الوباء، وتضاربِ الآراء بصدد سبل التغلب عليه، أثر في تفاقم الوضع. وبما أن الأمر لا يتعلق بظاهرة يمكن فهمها فهماً علمياً من الناحية الطبية، فقد عصف هذا الوباء باليقينيات الباعثة للرضا. وبدل أن تتعاضد الإنسانية لصد التحدي فقد تكالبت، كما القراصنة، على تجهيزات وقائية في عرض المحيطات والمطارات. وظهر الإنسان في كامل عريه. لقد فقد العلم السلطة التي كان، إلى عهد قريب، يتمتع بها.

وحين يخلي اليقين مجالات التواصل الإنساني؛ بل والعلمي، تبادر الخطابة إلى بسط نفوذها في الميدان. الخطابة تتغول حين يختفي اليقين. لا خطابة في حضرة اليقين. ومع استتباب سلطتها في فضاء التواصل تفشت كل أشكال العبث بإرادات الناس وعواطفهم الاستهوائية والدعائية؛ إذ إن هشاشة المواد التي تشتغل بها يجعل منها سلاحاً قابلا لاستخدامات متعارضة: خيرة تارة وشريرة طوراً آخر.

لقد جُرِد العلم في هذه الحالة من سلاحه، وانكشف عجزه ولو مؤقتاً. وتفاقم الوضع فأرغم العلماء على ركوب سفينة الخطابة. لاحظوا كيف انفلت الدهماء من عقالهم وأصبح لهم رأي في الفيروسات وفي المختبرات التي صنعتها والجهات التي نشرتها ولا سند لهم غير عجز العلم. وتمادى آخرون بالزعم أن كورونا أسطورة ملفقة. وغير ذلك من الترهات.

ومع انعدام اليقين العلمي يتصدع السور الذي كان يفصل بين جنسين من الخطاب. العلمي في جهة والخطابة في الجهة الأخرى. لكل واحد قوانينه المسطرة. مع اختفاء اليقين تغتنم الخطابة السوداء الفرص التي كانت تتحينها، وتباشر العمل في نشر الأضاليل والتسخير manipulation وكادت في هذا الخضم تنهار خطابة العقل والأمل.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

في هذا السياق أصبح الجميع خطباء. طالما أن لا يقين هناك، وطالما أن العلم استقل الطريق الاستكشافية الطويلة الأمد، فإن فراغاً رهيباً أتاح الفرصة لكل الناس لكي يتحدثوا في شيء لم تتحدد معالمه بدقة. هو هذا المناخ الذي تزدهر فيه الخطابة السوداء والتهييج والغواية.

الأدهى من هذا، أن العلماء أنفسهم ربما فقدوا جزئيا تلك الأرضية المشتركة التي كانوا يقفون عليها بالأمس القريب. فطالما أن التجربة المختبرية لم تثمر بعد النتائج العلاجية المطلوبة فقد أتيحت فرص مثيرة، ليس لتضارب الآراء فقط؛ بل لتهييج المخاطب واللعب بعواطفه. من قبيل ذلك، العصيان الظلامي ضد الإجراءات الاحترازية واتهام الدولة بالتقاعس والتهاون؛ بل والسخرية من أولئك الذي امتثلوا للإجراءات الوقائية.

هناك مجال طالما برعت فيه الخطابة. يتعلق الأمر بكيفية الإمساك بهذا الفيروس. وكيف نضبط تصرفه وأثره في الإنسان. في هذا المجال تتوفر الخطابة على أداة شديدة الفعالية لوصف كل هذا. إن المجال الطبي يفيض بالاستعارات التي تسخَّر لأغراض وصف الجائحة. لا شك أننا لاحظنا أن استعارة الحرب كانت شديدة الانتشار لوصف الوباء. وإذا كان أحدهم نسب هذا الابتكار إلى ماكرون، فإننا نقول إن كل ما يمكن أن يحسب للرجل هو لوكه لاستعارة يزيد عمرها على قرن. إذا صدقنا رأي المفكرة سُوزَانْ سُونتَاغْ (Suzan sontag). تقول سُونتَاغْ: وهي تتحدث عن استعارات السل والسرطان، ونحن نضيف كورونا: "إن أمراضاً من هذا النمط هي بالتعريف لغزية. إذ في الوقت الذي لا تُعرفُ أسبابُ السّل وفي الوقت الذي تكون فيه معرفة الطب غير فعالة، فإن هذا المرض يمثُل أمامنا باعتباره مختطفاً قاسياً لحياة ما. والآن السرطان [قل أيضاً كورونا] المرض الذي أتى بدون دعوة، المرض الشبيه بغزو عنيف وسري -وهو الدور الذي سيحتفظ به إلى يوم تصبح فيه أسبابه واضحة وعلاجه فعالاً كما أصبح الأمر بالنسبة إلى داء السل"[1].

إن الاستعارة الحربية قد ظهرت في الطب سنة 1880، حين تم التعرف على الباكتيريات باعتبارها عوامل مؤذية. كان يقال إن الباكتيريات "تغزو" الجسد، أو إنها "تتسلل" إليه. واليوم ونحن بصدد الحديث عن السرطان، نتحدث عن الحصار والحرب وذلك يمثل عبارة متمتعة بحَرفية دقيقة، وبصواب مدهش. إن الوصف لا يقف عند التطور المخبري للمرض وكيفية معالجته، وإنما يتطلع إلى اعتبار المرض عدوا ينبغي للمجتمع كله أن يشن الحرب عليه.

وبطبيعة الحال فقد أُلبستْ كورونا نفس اللباس الاستعاري. فلا يمكن الحديث عنها بغير الاستعارة نفسها التي استخدمت مع السل والسيفليس أو الزهري والسرطان والسيدا والطاعون والكوليرا والجرب. هي نفسها الحرب. ولقد ذهبت الفيلسوفة والناشطة الأمريكية سُوزَانْ سُونتَاغ إلى أن الاستعارة الحربية هي الاستعارة الأكثر توفقا في هذا المضمار.

[1]. *Suzan sontag, La enfermedad y sus metáforas, ed. Debolsillo.*

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

"ليست كل الاستعارات التي تطبّق على الأمراض وعلاجاتها مرفوضةً ومحرفةً. إن الاستعارة التي أفضلها أكثر والتي أتمنى تدوينها [...] هي الاستعارة الحربية".

ومع هذا وجب التأكيد أن اختيار الاستعارات في هذا الشأن لا يكون دائماً موفقاً. الواقع أن الاستعارة لا تضع تحت الضوء إلا ملامح من المستعار له. إن استعارة الجيش للأطباء لا تبين إلا الصفات الجيشية للطبيب من قبيل ركوب المغامرة والقسوة وتبخيس الخسارة وتغليب الانفعال، أما صفات الرقة والحذر والتأني والتداول العقلي والحرص على حياة الطبيب كما المريض... فإن استعارة الحرب تحاصرها في الظل. لإظهار هذه الصفات كا ن علينا أن نتذرع باستعمال استعارة أخرى. الاستعارة حسب ماكْس بلاك (Max black) رؤية الشيء من زاوية ما. هناك من صور للهيئة الطبية بقدر ما هناك من استعارات لها؛ أي من زوايا النظر إليها. ولهذا فإن أية استعارة تنطوي على تقويم ما للشيء المستعار له أي إيديولوجيا. في هذا السياق نفهم رأي رُوِينْ أُوجِينْ: "وبالنسبة إلى سُوزانْ سُونتَاغْ، فإن النشاط الاستعاري الذي توحي به هذه الأمراض ليس له أصل إلا الجهل بأسبابها وانعدام وصفات فعالة.

إن فكرتها الأصيلة عملية خالصة، إنها تعتقد أن المقاومة قد تكون أفضل ضد هذه الأمراض لو تخلصت من هذه الصور الممجدة أو المزرية، ولو تمكنّا من رؤيتها بطريقة عقلانية، أي إذا تمكنا من "تصفيتها من الأسطورة".

ينبغي التأكيد أن سُوزَان سُونتاغ تعتبر الاستعارات أدوات معرفية قاصرة عموماً وليس فقط حينما يتعلق الأمر بالمرض" [...]

إن عيب هذا المقوم يكمن بحسب سُونتَاغْ في العمق، في منعنا من مشاهدة الأشياء ببساطة "**كما هي موجودة**"، وفي نفس الوقت فإن سُوزانْ سُونتاغْ لا تنفي أننا غير قادرين على إدراك التمثلات العمومية للعالَم بدون الاستعانة بالصور أو الاستعارات المتقاسمة. تقول: "لا يمكن تصور الفكر الإنساني بدون قدر معين من استعمال الاستعارة. ففي كل مرة نقارن فيها شيئا ما بآخر -يحصل ذلك عادة حينما نقارن شيئاً بآخر معروف بشكل أفضل في الطبيعة- نكون بصدد الاستعارة. من قبيل ذلك "الذكاء آلة"؛ "الحصن الأقوى هو خالقنا"، والمجتمعات أجهزة عضوية". كل هذه الأمثلة هي منشآت استعارية. الاستعارة ليست مجرد أداة نحوية، أو محسن بلاغي؛ بمعنى أن هذا لا يمثل امتلاءها. الاستعارة هي طريق المعرفة، من الطرق الأقدم في سبيل ذلك، والأكثر تجذرا في العمق، والتي تكاد تكون لا غنى عنها المعروفة في تاريخ الفكر الإنساني"[1].

وعلى الرغم من هذا فإن سُونتَاغْ نفسَها تقول إن هناك استعارات ينبغي منعها: "على الرغم من أن التفكير بدون استعارات أمر مستحيل [...] فإن هناك استعارات ينبغي منعها. من قبيل هذا استعارة جسد الإنسان حيث يكون الرأس "قل أيضاً الذكاء" هو الذي يتحكم في الجسد بأكمله. إن هذه الاستعارة تتضمن اعتبار المجتمع ذا بنية عمودية التي هي بالضرورة توتاليتارية أي استبدادية".

[1]. *Robert Nisbet, (1979), pp. 55-58.*

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

بطبيعة الحال بين يدي الآن مقالة رائعة ترجمها الباحث الكبير الصديق ع. المجيد جحفة، مقالة للطبيبة الأمريكية أدينَ وَايْزْ التي تعترض على نفس هذه الاستعارة الحربية التي تدافع عنها سُونتَاغْ: طبعاً وَايزْ تتحدث بدل السرطان عن كوفيدْ 19: "في الأسابيع الأخيرة استخدمتْ عناوينُ رئيسية كثيرةٌ تصف من يعملون في الرعاية الصحية ويعَالجون المصابين بكوفيد 19، مجموعةً واسعةً من الاستعارات العسكرية: الأطباء يقاتلون على الخطوط الأمامية دون ذخيرة كافية، إنهم يقاتلون العدو، هم في حرب. لكننا لسْنا في حرب. فنحن لم نخضع للتجنيد. نحن أطباء. إننا نعمل بجد، وفي ظرف استثنائي، لإبقاء مرضانا على قيد الحياة. هل هناك أوجه شبه بين علاج عدد هائل من المرضى المصابين بفيروس سريع الانتشار، فيروس قد يؤدي إلى الموت، وبين صراع مسلح ضد عدو يغزونا؟ ربما كان هذا صحيحاً... لكن أوجه الاختلاف لا تقل أهمية. إن تبني عقلية زمن الحرب غايتها الأساس السماح باستحضار جميع الرهانات الممكنة، اتباع أي شيء يقود إلى النصر. وبينما نجد في الحرب إمكاناً لتكتيكات ومناورات متسرعة أو متهورة في المواجهات المسلحة في ساحة المعركة المادية، فإن هذه ليست الطريقة التي ينبغي أن يسعى بها المرء إلى ممارسة الطب"[1].

إن استعارة الجيش للهيئة الطبية تسعى أولا: إلى تكريس صورة ما لهذه الهيئة: أنطولوجيا. وثانيا هناك تقويم عاطفي أو قيمي. هذه الاستعارية تحبذ أو تنفر. هذه الاستعارة تحبب الأطباء وتنفر من العدو أي الفيروس: إيدْيولُوجِيا. وثالثاً هناك دعوة إلى الفعل action. ليس من الأطباء فقط الذين يطالبون بالتضحية بحياتهم كما الجيش، ولكن كل الناس يصبحون مطالبين بفعل معين مساند مادياً ومعنوياً: إننا في حرب!!. وهذي هي الاستراتيجية الحجاجية في هذه الاستعارة: إنها الفعل السياسي.

طبعا كل هذه الوظائف تنعدم في الخطاب النثري العادي الذي يزعم الاستغناء عن الاستعارة. الخطاب الحرفي خطاب متقاعس مصاب بما أسميه: "الأنيميا السيميائية"؛ أي يخلو من المكونات الإنسانية الذهنية والعاطفية والتحفيزية.

والواقع أن هذه الاستعارة الحربية نفسها قد لقيت نجاحا كبيراً في الإعلام المغربي كما في كل أرجاء العالم. وبما أن كل استعارة قد تنطوي على تلك المقاصد التي أشرت إليها فلا بأس من الوقوف على استعارة تعثرت فيها في إحدى النشرات الإخبارية لتلفزتنا. فبعد أن لاك هذا الجهاز لمدة سنة كاملة استعارة كورونا هجوم حربي، أتحفنا باستعارة إطفاء شمعة عيد ميلاد كورونا السنوي. والحقيقة: كيف يمكن إقناع جمهور الاستعارة الذي أمضى سنة كاملة في "حالة حصار" كورونا، وفي حالة إحصاء الضحايا يومياً تحت نفس قبة التلفزيون، وفي حالة تبادل التعازي في فقدان الأحبة الذين قضوا بسبب كورونا، وكيف كان الذين قضوا يدفنون دون أن يفوزوا بالنظرة الأخيرة للأحبة، كيف نطالب من جمهور التلفزيون أن ينقلب من إحساس الرعب الشجني (disphorie) إلى الإحساس الاغتباطي (euphorie). إنها استعارة فاشلة بكل المقاييس. كان على التلفزيون أن يحتفظ بالاستعارة السابقة الحربية ويطورها في اتجاه

[1]. *In. https://www.faceboom.com/abdelmajid.jahfa/posts/10219600762623178*

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

المقاومة وليس الاحتفال الأعراسي وربما الإيروسي. إن التلفزيون الذي لا يتقن استخدام الاستعارات ولا يميز بين المقامات ولا يقدر عواطف الناس، من الأفضل له أن يكتفي بالنثر، أو أن يسكت.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

مراجع البحث:

- Suzan Sontag, **La enfermedad y sus metáforas**, ed. Debolsillo, 1990.
- Robert Nisbet, **La sociología como forma de arte**, trad. del ingles: Consuelo Luca De Tena, ed. Espasa-Calpe S. A. Madrid, 1979.
- https://www.faceboom.com/abdelmajid.jahfa/posts/10219600762623178